أوراق علمية(10)

تاريخيَّةَ النّص القرآني

إعداد : هيئة التحرير

بمركز سلف للبحوث والدراسات

المقدمة

مفهوم التاريخية ونشأته.

التاريخية كلمةٌ من وضعِ الحداثيين العرب في مقابل مصطلح (Historicisme) الإنجليزي وهو (مذهب وجودي[١] هدمي يؤمن بنسبية المعارف والقوانين والقيم بكونها نتاجا خاصا لسياق وضعي[٢] تاريخي معين)[٣].

يُعتبر هذا المفهوم من أبرز المفاهيم التي تشكَّل عليها الفكر الغربي الحديث؛ حيث استخدمه لمدافعة النظام الكَنسي النصراني بإثبات تاريخية نصوصه، وقد نجحوا فيما أرادوه؛ إذ دين محرّف كالنصرانية لم يتكفل الله بحفظه لا غرابة أن تكون هذه نتيجته؛ ولكن الفكر الغربي لم يتكلف عناء البحث عن غيره من الأديان، بل رفضوا الدين كليًّا، وانتقلوا إلى طور الفلسفة الحديثة بإطارٍ معرفي جديد قائم على التاريخيّة.

فبسبب إمعانِ الكنيسة وإفراطها في الخيالات والأساطير، دون مراعاة واقع الناس وحاجاتهم؛ كانت ردة الفعل أن ظهر الإلحاح على الوعي بالتاريخ الواقعي الملموس، ثم

---

(١) "الوجودية – (Existentialisme) – مذهب يقوم على إبراز الوجود وخصائصه، وجعلِه سابقا للماهية، فهو ينظر إلى الإنسان على أنه وجود لا ماهية، ويؤمن بالحرية المطلقة التي تمكن الفرد من أن يمنع نفسه بنفسه، ويملأ وجوده على النحو الذي يلائمه، وصَرَف بهذا النظر عن البحث في الوجود الميتافيزيقي" المعجم الفلسفي لجميل صليبا (ص٢١١).

(٢) "الوضعية –(Positivisme) – مذهب أوجست كونت الذي يرى أن الفكر الإنساني لا يدرك سوى الظواهر الواقعية والمحسوسة وما بينها من علاقات أو قوانين، والعلوم التجريبية هي المثل الأعلى لليقين، وعلى ذلك لا محل للبحث عن طبائع الأشياء ولا عن عللها الغائية" المعجم الفلسفي لجميل صليبا (ص ٢١٤).

(٣) وقد عرفه بهذا د. طارق حمودي في مقال تاريخية النص (التاريخ والمفهوم)، وهو تعريف مستوعب للمفهوم قريب للأذهان بعكس غيره من التعريفات المترجمة من المعاجم الفلسفية والكتب الأجنبية، ومنها:

١- "وجهة نظر تقوم على اعتبار موضوع معرفي بصفته نتيجة حالية لتطور يمكن تتبعه في التاريخ. بنحو خاص؛ يقال هذا اللفظ على المذهب الذي يرى أن الحقوق –شيمة اللغات والعادات– هي نتاج إبداعي جماعي غير واعٍ وغير إرادي، إبداع يتناهى في لحظة انصباب الفكر عليه، ولا يمكن لاحقًا تبديله صراحة ولا فهمه وتأويله بطريقة أخرى غير طريقة دراسته التاريخية". موسوعة لالاند الفلسفية (٥٦١/٢).

٢- "هو فكر قائم على هدم النظام المعرفي القديم، والبحث عن نظام جديد". نقد الحداثة لمؤلفه آلان تورين ترجمة أنور مغيث (ص٩٠).

=

تجاوز ذلك إلى بناء المعرفة أساسا من داخل الإنسان وواقعه، دون أن تُفرض عليه المعرفة من خارجه بعيدًا عن واقعه (أي: الدين والله!!)[١].

إذن جوهر مفهوم التاريخية هو: **الانطلاق من تاريخ الإنسان الأرضي لبناء منظومة حياته.**

ولكنه -كغيره من المفاهيم الغربية- مرّ بمراحل تمخَّض فيها حتى استقرّ على هذا، **ويمكننا تلخيص تلك المراحل في مرحلتين:**

١- مرحلة ما قبل الحداثة؛ حيث كان البحث فيها عن حقيقةٍ مطلقةٍ يشترك في اليقين بها النوع الإنساني ويبني عليها منظومة حياته.

٢- مرحلة الحداثة وما بعد الحداثة؛ والتي انقلبوا فيها على أعقابهم وصاروا ينادون بنقيض ما دعوا إليه أولا، فقد كانت جهودهم متجهة لإبطال إمكانية الوصول إلى حقائق مطلقة، وأن ليس ثَمّة سوى تأويلات يتحكم فيها التاريخ الواقعي ولا ثبات للطبيعة البشرية[٢].

إذن التاريخية تذهب إلى استحالة إدراك الحقائق المطلقة؛ لأنه لا يمكن التعبير عنها دون تأثير الرؤية الذاتية عليها؛ فلا يمكننا الوصول إلى الموضوعية؛ وبناء عليه لا بد من مقاطعة التراث الماضي؛ لأنه متأثر بعصره ومرتبط بتاريخه!!

وفي ظلّ إنكار الحقيقة المطلقة، والقول بالنسبية لا يمكننا بناء حقائق أو الكشف عنها؛ وهي النتيجة الحتمية لمعتنقي التاريخية؛ حيث أصبح همُّهم هو رصد الإشكالات وصياغتها، والحفر والهدم والتقويض دون بديل، والعجيب أنهم يعتبرونه سر إبداع الفكر الحداثي[٣]!!

وعندئذ ليس ثمة إلا الفوضى والدّمار والضياع للبشرية.

---

(١) حكمة الغرب لبراتراند رسل ترجمة فؤاد زكريا (١٩/٢).

(٢) ينظر: موقف الفكر الحداثي العربي من أصول الاستدلال في الإسلام (ص٨٦)، ويشهد له تعريف موسوعة لالاند الفلسفية المذكور آنفا.

(٣) ينظر: التاريخ والحقيقة لدى ميشيل فوكو لـ د. السيد ولد أباه (ص ١٧).

=

فليس لنا عند نفي الحقيقة المطلقة والالتزام بلوازمه إلا أن نتقبّل كل شـــيء ولا نرفض أي شيء، إذ كلّ شيء نسبي!!

بل وأن نشـــك في كل شـــيء، وألا نؤمن بشـــيء، وينتهي بنا الحال إلى العدمية والعبثية والفوضوية(١).

وأما فكرة عدم ثبات الطبيعة البشرية فهي مبنية على الخلط بين الجوهر والمتغير، وليس هو جديدا على البشـــر، بل قد خلط بينهما اليونانيون من قبل، وكان ســـببا لاضطراب مقالاتهم وابتعادهم عن الاهتداء للحق(٢) .

ولكن ما حصـل لهم في الحقيقة إثباتُ عجز الإنسـان وضـعفه، فقد زعم فلاسـفةُ النهضـة الذين سيطرت عليهم النزعة الإنسـانية إمكانيةَ استقلال الإنسـان بصـنع واقعه وسـيطرته على العالم، ولما انكشـفت لهم الحقيقة وانكشـف لهم عجز الإنسـان وتأثره بظروف تاريخه، أنكروا الحقائق المطلقة، وزعموا نســـبية العلوم والمعارف كلها، وعدم وجود موضوعية غير متأثرة بالذاتية.

وهو ما يؤكّد لنا حاجة الإنسـان وافتقاره لإلهه حتى للوصـول إلى الحقائق فضـلا عن غيره من الأمور، وأن لا محيد عن الخالق المتعالي على التاريخ(٣).

وبدل أن يعتبر الحداثيون بهذا، انجرّوا وراءَ أفكارهم تلك، وراحوا يطوّعون الفكر الإسلامي ونصوصه لها، وهذا ما سنتناوله في المطلب القادم بإذن الله.

---

(١) ينظر: تاريخ الفلسفة بنظرة عالمية لـ (كارل ياسبرز) ترجمة: د.عبد الغفار مكاوي (ص ٤٦)، اللغة والمجاز لـ د.عبد الوهاب المسيري (ص١٣٨).

(٢) ينظر : قصة الفلسفة اليونانية لأحمد امين وزكي نجيب محمود(ص٤١ وما بعدها).

(٣) ينظر: موقف الفكر الحداثي العربي من أصول الاستدلال في الإسلام لـ د. محمد حجر القرني (ص٨٧).

دخول مفهوم التاريخية إلى الفكر الإسلامي

أسقطَ الفكر الحداثي العربي هذا المفهوم -مفهوم التاريخية- على الفكر الإسلامي، منجرّين في ذلك وراء فلسفات الغرب؛ زعما أن إثبات تاريخية النص القرآني هو رهن التطوّر والنهضة وجوهر الإصلاح الذي ينقل الفكر الإسلامي إلى الحداثة كما حصل للغرب!

اقرأ للعروي وهو يقول: "إن المثقفين يفكرون حسب منطقين؛ القسم الأكبر منهم حسب الفكر التقليدي، والقسم الباقي حسب الفكر الانتقائي، وإن الاتجاهين يوصلان إلى حذف ونفي العمق التاريخي... لقد قلنا إن الطريق الوحيد للتخلص من الاتجاهين معًا هو الخضوع للفكر التاريخي بكل مقوماته"(١).

واقرأ أيضا لهاشم صالح حيث يقول: "الرؤية الجديدة للدين والعالم يمكن أن تنتصر على الرؤية القديمة حتى ولو كانت راسخة الجذور في العقلية الجماعية منذ مئات السنين. ولكنها لن تنتصر إلا بعد تفكيك العقلية القديمة واقتلاعها من جذورها عن طريق تبيان تاريخيتها ونزع القداسة عنها"(٢).

وأما محمد أركون فقد صرح بأن هذا هو غايةُ جهوده الفكرية! حيث عبّر عنه بقوله: "توضيح وتبيان تاريخية العقل الخاصة بتلك الحركة الثقافية التي أدت إلى اعتبار الشريعة وكأنها التعبير الموثوق عن وصايا الله وأوامره"!!

ومنهجهم في إثبات تاريخية النص القرآني: ممارسة الضغط المتزايد للحداثة على المجتمع المسلم؛ لنزع التقديس والأسطورية المكنونة في صدور المسلمين للنص القرآني!! حتى يتساءل المجتمع بنفسه عن تاريخية النص القرآني، ويضعه تحت مجهر النقد العلمي انطلاقا من ذلك(٣).

---

(١) العرب والفكر التاريخي لعبد الله العروي (ص٢٠٥).

(٢) مدخل إلى التنوير الأوروبي لهاشم صالح (ص ١٠).

(٣) ينظر: الفكر الأصولي واستحالة التأصيل نحو تاريخ آخر للفكر الإسلامي لمحمد أركون (ص٦٤-٧٧).

=

إذن يُعتبر التعظيم والإجلال الذي يكنّه المسلمون للقرآن عقبةً كؤودًا أمام الحداثة يجب طمسه!![1]

ويكون ذلك بالبحث عن "كيف تشـــكُّله لأول مرة؟ وضـــمن أيَّةِ ظروف؟ وما علاقته بالظروف التاريخية التي ظهر فيها؟"[2]

ولا يُقصَـــد بهذا إثبات حجية القرآن أو قصّـــة نزول الوحي مثلًا كما فعل علماء الإسلام وإنما هو انطلاق من فلسفة الجدل الهيغلي[3]؛ حيث يعتبر النص القرآني منتَجًا ثقافيًا!! ناشـئًا عن الجدل بين النص والواقع الثقافي خلال فترة تزيد على عشـرين عاما، والنص القرآني على حـدّ زعمهم مرَّ بطورَين في ظـل هـذه العلاقـة الجـدليـة بين النص والواقع؛ ففي المرحلة الأولى والتي سمَّوها مرحلة التكون كان النص مســـتمِدًّا من الواقع الثقافي ومنتَجًا من منتجاته، بينما في المرحلة الثانية وهي مرحلة الاكتمال صـــار النص مصدرًا للثقافة ومُنتِجًا لها[4]!!

وهذا ما يعبرون عنه بتشكيل الواقع للنص ذاته، يقول عنها هاشم صالح: "ونقصد بالأرخنة هنا الكشـــف عن تاريخية الخطاب القرآني عن طريق ربطه بالبيئة الجغرافية والطبيعية والبشـــرية القبائلية لشـــبه الجزيرة العربية في القرن الســـابع الميلادي... البحث التاريخي الحديث يثبت أن القرآن مرتبط بظروف عصـــره وبيئته فألفاظه ومرجعياته الجغرافية والتاريخية تدل على ذلك" ويحتجون لذلك بالآيات التي تتحدث عمّا يختصُّ

---

(١) ينظر: الأنسنة والتأويل في فكر محمد أركون لمؤلفه كيحل مصطفى (ص ٢٦٤).

(٢) القرآن من التفسير الموروث إلى الواقع الديني لمحمد أركون (ص٥٣).

(٣) وملخص فكرة الجدل الهيغلي: أننا في هذا العالم نعيش صراعًا بين قضايا ونقائضها، فنبدأ بتناول فكرة ما، وعندما نكتشف نقائصها نتبنى نقيضها، ثم نكتشف عيوبا في هذا النقيض كذلك، فندمج بين إيجابيات الفكرة ونقيضها في فكرة ثالثة، ثم هذه الفكرة الثالثة تكشف عن متناقضات جديدة، فينشأ من جديد موضوع ونقيضه، ثم يرتفع هذا التناقض بينهما في تآلف جديد، وهكذا دواليك، حتى نصل إلى الفكرة المطلقة. ينظر: الموسوعة الفلسفية المختصرة (ص٢٩٩). وللاستزادة ينظر: مقال فلسفة التاريخ عند الفيلسوف الألماني هيجل على الرابط التالي:

http://www.alukah.net/culture/٠/٨٠٢٨٢/#ixzz٤bqmaFbgV

(٤) ينظر: مفهوم النص لنصر حامد أبو زيد (ص ٢٤ وما بعدها)

=

بعصـــر نزوله؛ كالحديث عن الروم والفرس والإبل والعبيد والمجادلات مع قريش وأهل الكتاب.

ويؤيدونه أيضـــا بأن من طبيعة اللغة أن يكتنفها الغموض بعد مضـــي برهة من الزمن، وكل منتج ثقافي مرتبط بلغة عصـــره وزمنه؛ ولذا كل منتج ثقافي يختص بتاريخه، وهذا ملحوظ فيمن يقرأ القرآن ولا يفهمه مع أنه عربي، لأن لغة القرآن قد اكتنفها الغموض!![1]

بيد أن الفكر الحداثي لا يقف عند هذا الحدّ في تعامله مع النص القرآني، بل يتجاوز ذلك إلى البحث عمّا يُعبِّر عنه بـــ(فكر صـاحب النص!!) في مجاله التاريخي وبكل أبعاده الثقافية والسياسية والاجتماعية والبحث في علاقته بالنص! ليتوصل بذلك إلى فهم جذور النص ومنشـئه أو ما يسـمونه (جينالوجيا النص القرآني) ويحدد وظيفة النص![2]

ولما سبق بيانه يرى الفكر الحداثي أنه تجب علينا القطيعة المعرفية عن الماضي كله، يقول العروي: "لم يعد هناك بداهة جاهزة ضـــرورية منطقية يركن إليها الجميع تلقائيا وتتماســك بها الأفكار. لابد إذن من امتلاك بداهة جديدة، وهذا لا يكون إلا بالقفز فوق حاجز معرفي: حاجز تراكم المعلومات التقليدية. لا يفيد فيها أبدا النقد الجزئي، بل ما يفيد هو طي الصفحة، وهو ما أسميته ولا أزال أسميه بالقطيعة المعرفية"[3].

وبذا يســتطيع الفكر الحداثي تجاوز النص القرآني مبنى ومعنى[4]، وإلغاء مرجعيته في عصرنا هذا؛ لأنه مختص بتاريخه، وعلى أقل تقدير يبقى القرآن كتابا للتلاوة والتبرك، أو جزءا لا يتجزأ من التراث الثقافي للأمة!!

---

(١) ينظر: تعليق هاشم صالح على كتاب محمد أركون (القرآن من التفسير الموروث إلى نقد الخطاب الديني) (ص ١٤)، وينظر: مقال (شعار تاريخية النص ليس هو الحل) لمحمد عابد الجابري.

(٢) ينظر: تاريخية الفكر العربي الإسلامي لمحمد أركون (ص ٢٢٩ وما بعدها)، الفكر الإسلامي قراءة علمية له أيضا (ص ١٢٩).

(٣) مفهوم العقل لـ عبد الله العروي (ص١٠)، وينظر: تاريخية الفكر العربي الإسلامي لـ محمد أركون (ص٢٩٤)، الفكر الإسلامي نقد واجتهاد له أيضا (ص٢٣٢).

(٤) ينظر: الفكر الإسلامي نقد واجتهاد لمحمد أركون(ص ٢٢٩).

بطلان نظرية تاريخية النص القرآني

لا غرو أن القرآن نزل في ظروف وسياقات تاريخية معينة، ونزل لتاريخ الإنسان وخاطب واقعه؛ ليرتفع به من واقعه وميوله البهيمية السفلية إلى الحال العلوي الأقوم والأمثل، ويهديه به إلى الحق والصراط المستقيم، ويصلح به حال الدنيا والآخرة.

إلا أن نزوله كذلك لا يُقصد به مخاطبة مَن نزل في زمنه خاصة، وإنما الخطاب فيه للعالمين في أي مكان وأي زمان وأي تاريخ فهو متعال على التاريخ؛ ذلك أن القرآن ينطلق من أنّ الطبيعة البشرية واحدةٌ لا تتغير وإن تغيّر تاريخه وعصره، فلا عبرة بتغيّر الجيل الذي نزل فيه القرآن ولو مرّت به آلاف السنين، وهذا من صور إعجازه.

ولأنّ الله الذي خلق الإنسان هو الذي خاطبه بهذا النص القرآني، فكيف يتناقض خلقه وأمره؟! كما قال الله تعالى: {تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا (١) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا} [الفرقان: ١، ٢] ثم أخبر سبحانه تعالى عمن يزعم أن القرآن أساطير خاصة بالأقدمين وبتاريخ قديم، وردّ على هذه الدعوى بقوله: {وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٥) قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا} [الفرقان: ٥، ٦]، فليس القرآن مرتبطا بتاريخ بشري، بل هو وحي من الله الأول الآخر الظاهر الباطن خالق السماوات والأرض ومن فيهما.

ولأن الطبيعة البشرية واحدة لا تتغير، يأمرنا الله سبحانه وتعالى بالاعتبار بحال من سبق من التاريخ القديم، ويبين لنا أن مصير المؤمنين واحد ومصير الكافرين واحد وإن تعددت تواريخهم، قال تعالى: {لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} [يوسف: ١١١]؛ لأن طبيعة المؤمنين والكافرين ومآلاتهم واحدة لا تتغير وإن تغيّرت أزمانهم وأماكنهم.

وكذلك أحوال الكفار مع أنبيائهم لا تتبدل ولا تتغير وإن تعددت تواريخهم {كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (٥٢) أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ} [الذاريات: ٥٢، ٥٣]، فهنا يبيّن الله تعالى أن الطغيان طبيعة

المترفين؛ فإنهم لغِناهم الدنيوي لا ينصاعون لأمر ربهم ورسله؛ ظنّا منهم أنهم مستغنون عن خالقهم ومَن إليه يرجعون، قال تعالى: {كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى (٦) أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى} [العلق: ٦، ٧].

فهل يتغيّر التكذيب بالرسل والكفر برب العالمين والطغيان بتغير الأزمان والأمكنة؟ هل يختلف الإيمان بالله ورسله وكتبه وقدره واليوم الآخر في تاريخ بشري عن غيره من التواريخ؟

بل تأمل أخي طالب الحق في مقاصد القرآن العظيمة ومسائله المتعالية والمتجاوزة للتاريخ، وهل تتناسب مع هذه الفكرة الماركسية الاعتباطية، اقرأ قول الله تعالى: {إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ} [الإسراء: ٩] وقوله تعالى: {حم (١) تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٢) كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣) بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ} [فصلت: ١ – ٥]، وقوله تعالى:{الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا (١) قَيِّمًا لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا} [الكهف: ١، ٢]، وقوله{الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ} [هود: ١]، فهل هذه المعاني القرآنية العظيمة مرتبطة بعصر النبي صلى الله عليه وسلم وتاريخه، أليست هذه المعاني قائمة من قبل زمن النبي صلى الله عليه وسلم وفي زمنه وحتى زماننا، بل وحتى قيام الساعة؟!

بل إن الله سبحانه وتعالى تحدَّى الإنس والجن ولو تكاتف بعضهم مع بعض أن يأتوا بمثله، وهذا التحدي متجاوز لحدود البشر التاريخية ومتعال عليها وقائم حتى اليوم وإلى يوم القيامة، يقول تعالى: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨]، فهل استطاع أحد الإتيان بمثله؛ لِنزعمَ أن تاريخ هذا التحدي قد انتهى؟!

وأيضا أخبر الله تعالى أنّ نبيه محمدًا رحمة للبشرية، بل والعالم أجمع بقوله تعالى:﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، فمن ذا يخصّص فضل الله ورحمته وقد عمّمها للبشرية جمعاء؟!

إذن أنزل الله القرآن ليرتقي بالإنسان عن واقعه وتاريخه الحيواني إلى الفضائل السماوية، ولينبهه ليعود إلى وعيه، ويوازن بين الوحي وواقعه التاريخي الخاص، ولكن الفكر الحداثي يقلب القضية رأسا على عقب، ويجعل لما فوق التاريخ أحكام التاريخي!! وبدل أن يرتفع بالإنسان في درجات الفضيلة ينزل بالنص القرآني إلى وحل التاريخية، كما نص عليه حسن حنفي بقوله: "وكثير من الحلول لم تكن في بادئ الأمر معطاة من الوحي، بل كانت مقترحات من الفرد أو الجماعة ثم أيدها الوحي وفرضها!"[١]

ويريد تطويع النص القرآني للمنطق الأنثربولوجي- التاريخي الحديث، وهو المنطق الذي يعتمد الواقع التاريخي الذي تنتمي إليه جماعة ما ليحدد ما تريده من النص بما يتوافق مع المشروطيات التاريخية[٢]

وبدل أن ينتمي الفكر الحداثي إلى كلام الله ورسوله ويسلِّم له، اتّخذ من هذه الفكرة الماركسيّة التي تدعي "أن الواقع هو من يصنع الفكر وليس الفكر هو من يصنع الواقع"[٣] مرجعا له!!

وكان مقتضى الانطلاق من التاريخية أن يُنظر في العوامل والظروف التاريخية التي تخص الفكر الإسلامي والنص القرآني ثم يُتخذ لها المنهج الذي يناسبها، لا أن نأخذ منهجا مختصا بفكر آخر لنسقطه على الفكر الإسلامي إسقاطًا!

ولكن الفكر الحداثي العربي لا يريد لنا إلا أن نكون مستهلكين لمنتجات الغرب حتى في مناهج التفكير والنقد!! حيث يعيد إنتاج الفعل الحداثي الغربي نفسه تقليدا لأطواره وأدواره، ويريد أن يطبقه على الفكر الإسلامي![٤].

ومع اعترافهم بأن النظام المعرفي الذي ينتمي إليه الإنسان هو المسؤول عن توجيه تفكيره، إلا أنهم لا ينفكّون يتخذون هذه الفكرة الماركسية نظاما معرفيا وإليه يحاكمون الأمور ولو كانت في كتاب الله ورسوله؟!

---

(١) التراث والتجديد لحسن حنفي(ص ١٣٥ وما بعدها).

(٢) ينظر: نحو تاريخ مقارن للأديان التوحيدية لمحمد أركون(ص ٢٨٧).

(٣) أصول الفلسفة الماركسية لجورج بوليتزر ترجمة شعبان بركات (ص ٢٧٥ وما بعدها).

(٤) ينظر: تجديد المنهج في تقويم التراث لـ د. طه عبد الرحمن (ص١٩ وما بعدها)، روح الحداثة لـ د. طه عبد الرحمن (١٧٧ وما بعدها).

فلماذا تكون هذه الفكرة مسلّمة وهي محض تحكم ومصادرة؟! بل يكذبها التاريخ نفسه، فإن السنة الكونية التي أقام الله التاريخ عليها قائمة على أن الفكر هو من يصنع الواقع.

أليست دعوات الرسل كانت خروجا على الواقع وتصادما معه وإعادة لتركيبة المجتمع وصياغته؟ فأين الواقع الذي صنعها؟ أليس المفكرون والفلاسفة في عصور التاريخ البشري كانوا خارجين عن حدود واقعهم وزمانهم بما طرحوه من أفكار؟ فأين الواقع الذي صنعهم؟

ولم لا يُنظر إلى مفهوم التاريخية على أنه حالة استثنائية بسبب الأزمات الاجتماعية والظروف التاريخية التي كان يعيشها الفكر الغربي حين ظهوره؟

ولماذا يبقى هذا المفهوم ثابتا مع دعوى عدم إمكانية ثبات المفاهيم والعلوم ونسبيتها؟ بينما تلغى الحقائق بدعوى تاريخيتها؟![1]

ثم إن الفكر الحداثي لا يأبه أن يصرّح بأن الإسلام والقرآن كالنصرانية وكتابها! ولذا يتعاملون مع النص القرآني بذات المنهج الذي تعامل به الغرب مع الكتاب المقدس؛ لأن "الإسلام كبقية الأديان في الخضوع للتاريخية التي خضعت لها المسيحية؛ إذ إن الإسلام لا يختلف عن المسيحية في كونه يقع ضمن الإطار المعرفي للقرون الوسطى ولأن الاسلام عنده نتاج الممارسة التاريخية للبشر، وبالتالي فهو يتطور ويتغير، ويخضع للتاريخية مثله مثل أي شيء على وجه الأرض، إنه ناتج عن الممارسة التاريخية لفاعلين اجتماعيين شديدي التنوع.. كما أنه ناتج عن فعل الشروط التاريخية التعقيد عبر الزمان والمكان"!![2]

ومن الغريب أن الحداثيين العرب يدّعون تاريخية النص القرآني مع أنهم يعترفون – كما اعترف أربابهم الغربيون– أن الدين من الأمور المتجاوزة للتاريخ وغير خاضع له[3].

---

(١) موقف الفكر الحداثي العربي من أصول الاستدلال في الإسلام لـ د.محمد حجر القرني (ص١٠٨).

(٢) ينظر: قضايا في نقد العقل الديني لمحمد أركون (ص ٣٢٦)

(٣) حيث قال محمد عابد الجابري في مقال (شعار تاريخية النص ليس هو الحل): " أما "الأشكال العليا للوعي"، وهي أساسا الفن والدين والفلسفة، أي ما عبر عنه هيجل بـ"الروح المطلق" فقد لاحظ ماركس نفسه أنها لا تتحد

=

وأما تمسُّكهم بما في القرآن من أمور مرتبطة بعصر نزوله؛ كالآيات السببية والكلام عن الروم والفرس والإبل والعبيد والمجادلات مع قريش.

فإن الأصل في نزول القرآن أنه ابتدائي، وأما السببي فمع كونه أقلّ فإننا لا ننكر أن هناك علاقة بينه وبين الواقع الذي نزل فيه، ولكن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فهي مرتبطة بنوع الحادثة لا عين الحادثة التي نزلت فيها، وأما الحادثة المعينة فليست سوى مناسبة للوصول إلى الحكم التشريعي الذي يعمّ كل الأمة؛ ولذا يستفيد منها العلماء، ويستنبطون منها الأحكام، ويقيسونها بغيرها وهذا من أوجه إعجاز القرآن.

قال الامام ابن تيمية -رحمه الله- في سياق كلامه عن قول العلماء "هذه الآية نزلت في كذا" قال: "فالذين قالوا ذلك لم يقصدوا أن حكم الآية مختص بأولئك الأعيان دون غيرهم؛ فإن هذا لا يقوله مسلم ولا عاقل على الإطلاق، والناس وإن تنازعوا في اللفظ العام الوارد على سبب هل يختص بسببه أم لا؟ فلم يقل أحد من علماء المسلمين أن عمومات الكتاب والسنة تختص بالشخص المعين، وإنما غاية ما يقال إنها تختص بنوع ذلك الشخص، فيعم ما يشبهه ولا يكون العموم فيها بحسب اللفظ.

والآية التي لها سبب معين إن كانت أمرا ونهيا فهي متناولة لذلك الشخص ولغيره ممن كان بمنزلته، وإن كانت خبرا بمدح أو ذم فهي متناولة لذلك الشخص وغيره ممن كان بمنزلته أيضا. ومعرفة سبب النزول يعين على فهم الآية فإن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب"(١).

بالوضع الاجتماعي بهذه الصورة بل هي تمتلك استقلالا يجعلها تعلو على المجتمع وأطره. وفي هذا المعنى كتب يقول: "إن الصعوبة ليست في فهم كيف أن الفن والملحمة الإغريقيين كانا مرتبطين ببعض أشكال التطور الاجتماعي، بل إن الصعوبة هي في فهم لماذا لا يزالان يُوَلِّدان فينا متعة فنية ويحتفظان بقيمتهما من بعض الوجوه ، كمعيار ونموذج لا مثيل لهما". ويمكن بسهولة أن نقول الشيء نفسه عن النص القرآني: "إن الصعوبة ليست في فهم كيف أن القرآن وسيرة النبي كانا مرتبطين ببعض أشكال التطور الاجتماعي، بل إن الصعوبة هي في فهم لماذا لا يزالان يُوَلِّدان فينا متعة فنية (بلاغية) ويحتفظان بقيمتهما من بعض الوجوه ، كمعيار ونموذج لا مثيل لهما".

(١) مجموع الفتاوى (١٣/ ٣٣٩).

وإن سلمنا جدلا بأن الآيات السببية تشكّلت وتكوّنت بسبب الواقع وأنها تؤيد هذه الفكرة الماركسية، فماذا عن الآيات التي نزلت تخبر عن أمور ستقع في مستقبل التاريخ، فكما أن في القرآن نصوص نزلت لأسباب وأحداث واقعية سبقت نزولها، فعلى العكس أيضا فيه نصوص نزلت تتنبأ بأمور ووقائع تقع في مستقبل التاريخ، فهل كانت تلك النصوص أيضا من صنع الواقع لها؟!

انظر مثلًا إلى إخبار الله تعالى بانتصار الروم على الفرس، بعد أن فرح مشركو قريش بانتصار الفرس، فأخبر الله تعالى عن فرح المسلمين عما قريب بانتصار الروم أتباع الدين الإلهي على الفرس، يقول الله تعالى: {الم (١) غُلِبَتِ الرُّومُ (٢) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤) بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٥) } [الروم: ١ – ٥]، بل قد تحدى الصحابة المشركين على وقوعه وراهنوا على ذلك(١).

فهل كانت هذه النصوص وأمثالها من صنع الواقع ومستمدة من الثقافة القرشية؟!

فإذا ما تجاوزنا تلك العصور ونظرنا فيما يسمّى بالعصر الحديث، ألم يكتشف الإنسان فيه حقائق علمية كثيرة منصوص عليها في القرآن قبل مئات القرون؛ كعلم الأجنة وغيره من المعجزات القرآنية الخالدة؟!

وأما دعوى أن طبيعة اللغة أن يكتنفها الغموض بعد زمن، فإن الأصل في ألفاظ اللغة الثبات، وحفظ الله سبحانه لكتابه حفظ يشمل مبانيه ومعانيه، والقرآن –كما قال ابن عباس– "على أربعةِ أوجهٍ: وجهٌ تعرفه العربُ من كلامها، وتفسير لا يُعذر أحدٌ بجهالته، وتفسير يعلمه العلماء، وتفسير لا يعلمه إلا الله تعالى ذكره"(٢).

وكيف يتفق هذا وقول الله تعالى: {وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ} [النحل: ٤٤]؟ ألم يبين النبي صلى الله عليه وسلم القرآن والله سبحانه وتعالى أرسله لذلك؟! ألم يقتف الصحابة والسلف أثر نبيهم في تبيان معاني دستورهم خلال القرون السابقة؟!

---

(١) ينظر: النبأ العظيم لـ د. محمد عبد الله دراز (ص: ٧٨).

(٢) تفسير الطبري (١/ ٧٥).

فالحمد لله الذي سخر للإسلام علماء تبصروا لهذه القضية منذ فجر الإسلام، فألفوا كتب الغرائب والشروح وخدموا النص القرآني والسنة أيما خدمة لتوضيح معانيها، ولكن مرام الفكر الحداثي مما ذكر هو القطيعة المعرفية مع كل تراثنا الإسلامي السابق؛ بدعوى أن لغتها غامضة لا يمكننا التعامل معها!!

فيكون النص قد انتهى تاريخه؛ لأنه مرتبط بذلك السياق التاريخي الذي نشأ فيه ذلك المجتمع، وأما المجتمعات الأخرى فلها تعبيراتها التاريخية الخاصة بها!!

بل كيف يجتمع القول بتاريخية النص القرآني مع الإيمان بأنه كلام منزل من عند الله رب العالمين لخلقه بشيرا ونذيرا؟! فإن الظروف التاريخية التي يزعمونها إنما هي مختصة بالبشر وإنتاجات البشر!!

بل يعظم الهول على المؤمن بالله العظيم إذا عرف تصور الفكر الحداثي لـــ(الله) ذاته، حيث يعتقد أنها فكرة يصنعها التاريخ وتتشكل من خلال الواقع- تعالى الله عما يقولون- ولا يعتقدون كما نعتقد أنه موجود حقيقة حي قيوم متصف بالصفات العلى.

كما عبر عن ذلك أركون بقوله: "يمكن القول بأن التصور الحديث لله يتجلى في الأمل في الانفتاح على أفق الأمل: الأمل بالخلود، الأمل بالحرية، الأمل بالعدالة، الأمل بتصالح الإنسان مع ذاته. هذا هو الله بالنسبة للعالم الحديث والتصور الحديث"(١)

ولا نشك أنه بهذا يتكلم بلسان آبائه أمثال نيتشه الذي قال: "في العالم ليست هناك حقائق. هناك فقط تأويلات"(٢)، ونجده يبرر مقولة نيتشـــه التي زعم فيها موت الإله فيقول: "عبارة قاسية وصادمة للحساسية الجماعية لجماهير المؤمنين كهذه يجب ألا تخيفنا كثيرًا؛ لأنها لا تعني رفض الله أو رفض الإيمان بالله، وإنما تعني موت جينالوجيا معينة أو طريقة لغوية معينة للتعبير عن وجود الله. فالله حي لا يموت ما يموت ما هو تاريخي حقا، هو تلك التصورات التي يشكلها البشر عبر مراحل تاريخية مختلفة عن الله"(٣).

---

(١) قضايا في نقد العقل الديني لمحمد أركون (ص٢٨٢).

(٢) ينظر: فهم الفهم مدخل إلى الهرمنيوطيقا لـ د. عادل مصطفى

(٣) قضايا في نقد العقل الديني لمحمد أركون (ص٢٨٢).

وهنا نتذكر وقفة العلماء مع الأوصاف العدمية والسلبية لله تعالى؛ لأنها تؤدي إلى إنكاره سبحانه وتعالى في آخر المطاف.

ولذا استنفر أهل الحق طاقاتهم في صد هذا المنهج، وصد من تأثر به من منكري الصفات التي تنطوي في الحقيقة على إنكار ذات الله سبحانه وتعالى[1].

(١) موقف الفكر الحداثي العربي من أصول الاستدلال في الإسلام لـ د.محمد حجر القرني (ص٢٧٨ وما بعدها).

الخاتمة

في ختام هذه الورقة اتضـــح لنا كيف أن مفهوم التاريخية ترعرع في ظروف تاريخية معينة للفكر الأوروبي سببت ظهوره، وأنه ليس سوى إغراق للمجتمع في الماديات كردة فعل لمغالاة الكنســيين في الخيالات والأســاطير والأوهام، ولكن الفكر الحداثي العربي أسقطه على النص القرآني إسقاطا دون مراعاة لنشأة مفهوم التاريخية ولا إحاطة بالقرآن وتاريخه وعلومه ومفاهيمه، حتى توصَّـــل في آخر المطاف إلى تجاوز النص القرآني مبنى ومعنى!! والانقطاع عن التراث الإســـلامي والماضـــي بكل ما فيه؛ لأنه مرتبط بتاريخه القديم وظروف عصره!!

فإن أعرضنا عن تراثنا الإسلامي الأصيل، فإلى أي فكر وثقافة وتراث ننتمي؟!

أنترك الانتماء إلى كلام الله ورســـوله وأتباعه، لنتَّجه إلى كلام هيغل وماركس ونيتشه؟!!

ولنا فيما قاله شـــيخ الاســـلام ابن تيمية -رحمه الله- عبرة حيث يقول: "هؤلاء عمدوا إلى ألفاظ مجملة مشتبهة تحتمل في لغات الأمم معاني متعددة، وصاروا يُدخلون فيها من المعاني ما ليس هو المفهوم منها في لغات الأمم، ثم ركبوها وألفوها تأليفًا طويلا بَنَوا بعضَـــه على بعض، وعظموا قولَهم وهوَّلوه في نفوس من لم يفهمه... فإذا دخل معهم الطالبُ وخاطبوه بما تنفِر عنه فطرته، فأخذ يعترض عليهم قالوا له: أنت لا تفهم هذا"[1] .

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم

(١) درء تعارض العقل والنقل (١/ ٢٩٥).